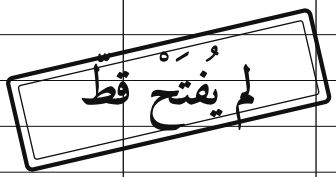
خِزانةُ الكتب · بطاقةُ الإعارة

لن يقرأَ أحدٌ هذا الكتاب

ولا بأسَ، فما كتبه أحد

المؤلِّف: .....

اسمُ المستعير	يومُ الإعارة	يومُ الردّ



نبيل المهياوي

رسالةٌ في القراءةِ والآلةِ والإنسان

لن يقرأَ أحدٌ
هذا الكتاب

ولا بأسَ، فما كتبه أحد

نبيل المهياوي

جميع الحقوق محفوظة © 2026 نبيل المهياوي.

الرسومُ كلُّها مخطوطةٌ بالحبر الأسود، وليس في الكتاب لونٌ غيرُه.

أعزُّ مكانٍ في الدُّنى سَرجُ سابحٍ

وخيرُ جليسٍ في الزمانِ كتابُ

المتنبّي

الأبواب

فاتحة 1

الأوّل، في الأثر 3

الثاني، في غَيبةِ الكاتب 6

الثالث، في غَيبةِ القارئ 9

الرابع، في المطر 12

الخامس، في الاعتراف 15

السادس، في العُمرَين 18

السابع، فيما لا يُستنابُ فيه 21

الثامن، في القارئِ الكاتب 24

خاتمة، في تصويبِ العنوان 28

فاتحة

أمّا بعدُ،

فهذا كتابٌ لن يقرأه أحد.

لا أقولها تواضعًا يستجدي الثناء، ولا شكوى تستدرّ الرحمة، وإنّما أقولها كما يقول الراعي إنّ السماءَ ماطرةٌ غدًا: خبرًا عن الجوّ، لا رأيًا فيه.

سيبلغك في رسالةٍ عَجَلى، فتدّخره لغدٍ لا يجيء، وتُودِعه خزانةً كتبتَ على بابها «أقرؤه بعد حين». وتلك أعظمُ خزائنِ الكتبِ مذ كانت الخزائن، وأقلُّها زائرًا.

فإن ألحَّ عليك الفضولُ سألتَ آلةً أن تعتصره لك في خمسةِ أسطر، فقرأتَ منها ثلاثة، ثمّ عددتَ نفسَك في القارئين.

ولا بأس.

فما كتبه أحدٌ كذلك.

أمّا مَن خطَّ هذه السطور، أإنسيٌّ هو أم غيرُ إنسيّ، فمسألةٌ أُرجئها إلى بابها. وحسبُك منها الساعةَ أنّك لا تجد إلى اليقين فيها سبيلًا. وذلك، إن تدبّرتَ، هو الكتابُ كلُّه.

فإن بلغتَ آخرَ هذه الصفحة على خلاف ما وعدتُك، فأنتَ أوّلُ الخطأين في عنوانه. وأمّا الثاني فموعدُه الصفحةُ الأخيرة.

البابُ الأوّل

في الأثر

قبل خمسةِ آلافِ عام، في أرضِ ما بين النهرين، غمز كاتبٌ لا نعرف له اسمًا قصبتَه في لوحٍ من طين، يُحصي أكيالَ الشعير. ولم يدرِ أنّه، وهو يعدّ الشعير، قد أودع الطينَ معنًى لم يقصد إليه: أنّ أحدًا كان هاهنا.

وكذلك كان كلُّ مكتوبٍ من بعده، يقول هذا قبل أن يقول شيئًا. فالرسالةُ يدٌ ارتعشت أو ثبتت، والصكُّ تاجرٌ سهر ليلَه، والبيتُ من الشعر صدرٌ ضاق بما فيه. حتى السِّبابُ على الجدار، إنّما هو غاضبٌ مرّ من هنا وفي يده فحمة.

كان المكتوبُ أثرَ قدمٍ في الرمل. وقد كانت العربُ تقصّ الأثر، فتعرف من وطأةِ القدم الشيخَ من الفتى، والمُثقَلَ من المُخِفّ، والمُقبلَ من المُدبر. قد يجهل القائفُ صاحبَ الأثر، ولكنّه لا يجهل أنّ له صاحبًا، وأنّ له ثِقلًا، وأنّه يَمَّم هذه الجهةَ دون تلك.

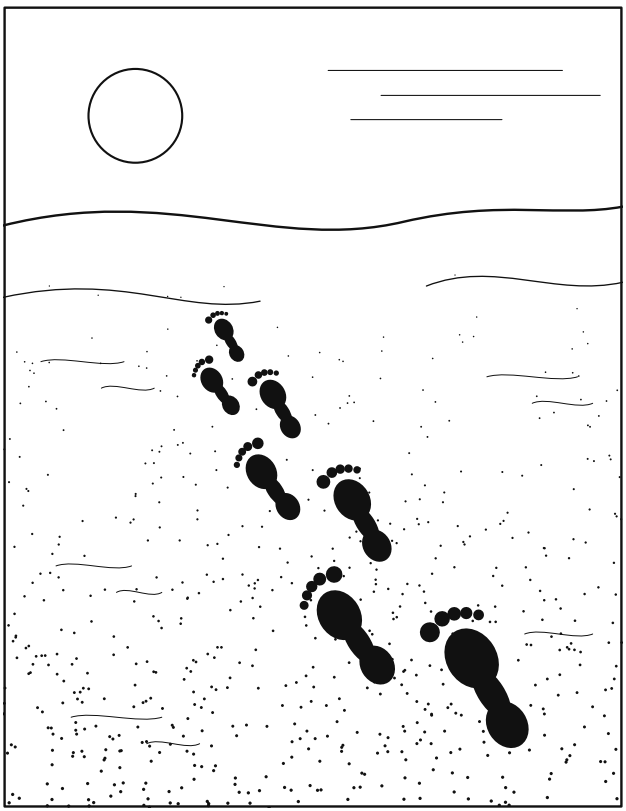
وعلى هذا اليقينِ اليسير قام العُمرانُ كلُّه: المدرسةُ والمحكمة، والعهدُ والميثاق، ورسائلُ العشّاق. فإنّا لا نأمن الكلام، وإنّما نأمن أنّ وراء الكلام مَن يُسأل عنه.

ثمّ كان في سنينَ معدوداتٍ ما لم يكن في خمسةِ آلافِ عام:

أخذ الرملُ يُنبِت الآثارَ من تلقاء نفسه.

آثارٌ مُحكَمة، تامّةُ الأصابع، مستقيمةُ الوِجهة.

وما مرّ بها أحد.



أثرٌ، ولا عابر.

البابُ الثاني

في غَيبةِ الكاتب

كان للكتابة ثمن، وكان الثمنُ هو الشاهد.

كان الكاتبُ يدفع من عمره: ليلةً يَسهرها، وسطرًا يمحوه، وكلمةً يطاردها نهارَه كلَّه فلا يُدركها إلا عند الغروب. وكان القارئ يعلم ذلك وإن لم يُخبَر به، فيقرأ وهو موقنٌ أنّ بين يديه قطعةً من عمرِ إنسان.

وقد حدّث أبو هِفّان عن الجاحظ أنّه كان يكتري دكاكينَ الورّاقين، ويبيت فيها للنظر. فتأمّلْ: رجلٌ يستأجر الليلَ ليقرأ، في دكّانٍ يبيع صاحبُه النهارَ لينسخ. تلك سوقٌ كان النقدُ فيها الأعمار.

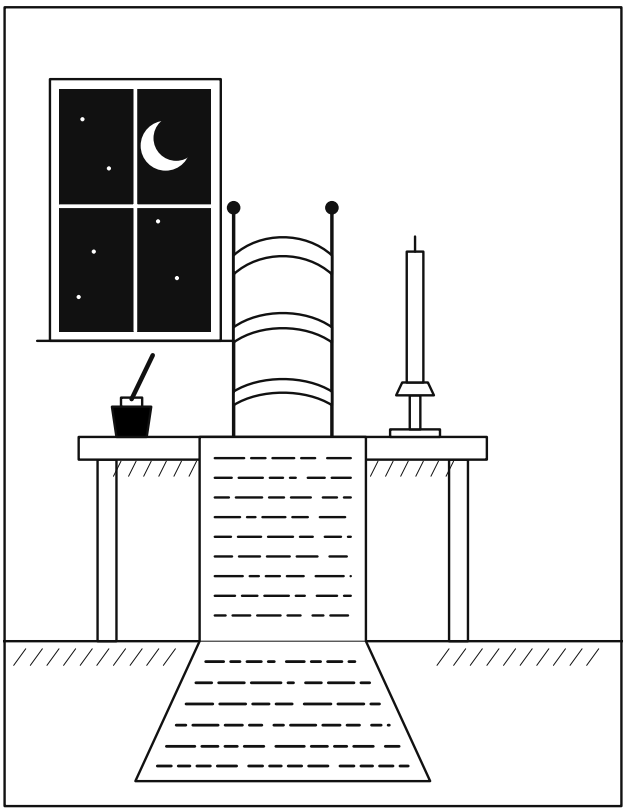
ثمّ جاءت آلةٌ تكتب ولا تسهر. تسألها الصفحةَ فتُعطيك الكتّاب، وتسألها الكتّابَ فتُعطيك الخزانة، لا يتغيّر لها لون، ولا يثقل لها جفن. وليس في كلامها ما يُعاب: نحوُها قويم، وبيانُها سليم، وحُجّتُها مصفوفةٌ صفَّ الجندِ يومَ العرض.

ولستُ أذمّها، فما يُذَمّ النهرُ على أنّه يجري. وإنّما أقول: إنّ الثمنَ قد سقط، وإذا سقط الثمنُ سقط الشاهد.

كنّا إذا قرأنا تعزيةً علمنا أنّ صاحبَها خلا بها ساعةً لم يكن له فيها شغلٌ غيرُنا. فأمّا اليوم، فالتعزيةُ البليغةُ تبلغك في لمح البصر، ولا تدري: أخلا بها صاحبُها، أم أشار إلى الآلة بإصبعه ومضى إلى عَشائه؟

الكلامُ هو الكلام، ولعلّه أحسن.

ولكنّ الكرسيَّ من ورائه خالٍ.



شمعةٌ لم تُوقَد، وصحيفةٌ قد امتلأت.

الباب الثالث

في غَيبةِ القارئ

ولو وقف الأمرُ عند الكاتب لهان.

ولكنّ القارئ نظر، فإذا المكتوبُ قد طغى عليه طُغيانَ السيل: رسائلُ لا يُحصيها عدّ، وتقاريرُ يركب بعضُها بعضًا، وكلُّها فصيح، وكلُّها طويل. فقال في نفسه: إن كانت آلةٌ قد كتبت هذا، فلتقرأْه آلة.

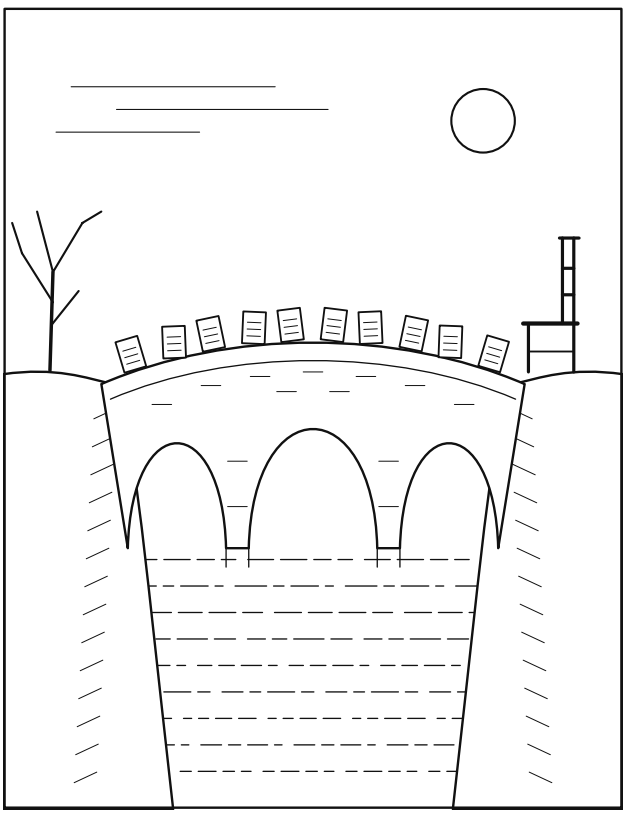
فصار الأمرُ إلى ما ترى. رجلٌ يُلقي إلى آلته ثلاثَ كلمات، فتنفخ فيها حتى تصير ثلاثَ صفحات. ثمّ تمضي الصفحاتُ إلى رجلٍ آخر، فيأمر آلتَه أن تردّها إلى ثلاثِ كلمات. فكأنّهما رجلان يتهاديان الماء: يُجمِده هذا ليبعثه، ويُذيبه ذاك ليشربه، ولو تناولاه بالكفّ لكفاهما.

وليس الخوفُ من الأداة بجديد. فقد حكى أفلاطون عن سقراط خبرَ ملكٍ من ملوك مصر، عُرضت عليه صناعةُ الكتابة يومَ استُنبطت، فقال لصاحبها: إنّك تُورِث الناسَ النسيان، وتُعطيهم ظنَّ الحكمة لا الحكمة. وقد أخطأ الملكُ وأصاب: كتبنا فنسينا كثيرًا، ولكنّا حفظنا بالكتابة أكثرَ ممّا نسينا.

غير أنّ بين الأمرين فرقًا لا يخفى على متأمّل. الكتابةُ أراحت الذاكرةَ من الحمل، وتركت للعقل الفهم. وأمّا هذه، فتَعرِض أن تُريحنا من الفهم نفسِه.

كان الكتابُ جسرًا بين ضفّتين. فأمّا الآن، فالجسرُ قائم، مُحكَمُ البنيان، مزدحمٌ بالصحائف تعبره ليلَ نهار.

وليس على الضفّتين أحد.



جسرٌ عامر، وضفّتان خاليتان.

البابُ الرابع

في المطر

فما الكلامُ إذا لم يكن له قائلٌ يَقصِد، ولا سامعٌ يُقصَد؟

هو مطر.

والمطرُ لا يخاطب أحدًا. ينزل على الحقل وعلى الصخر، وعلى مَن حمل مِظلّتَه ومَن نسيها، لا يسأل عن اسمك ولا ينتظر جوابك. وكذلك صار الكلامُ في زماننا: حالًا من أحوال الجوّ. تفتح نافذتَك فإذا هو يهطل، وتُغلقها وهو يهطل، ولا تجد في نفسك أنّ أحدًا أرادك به.

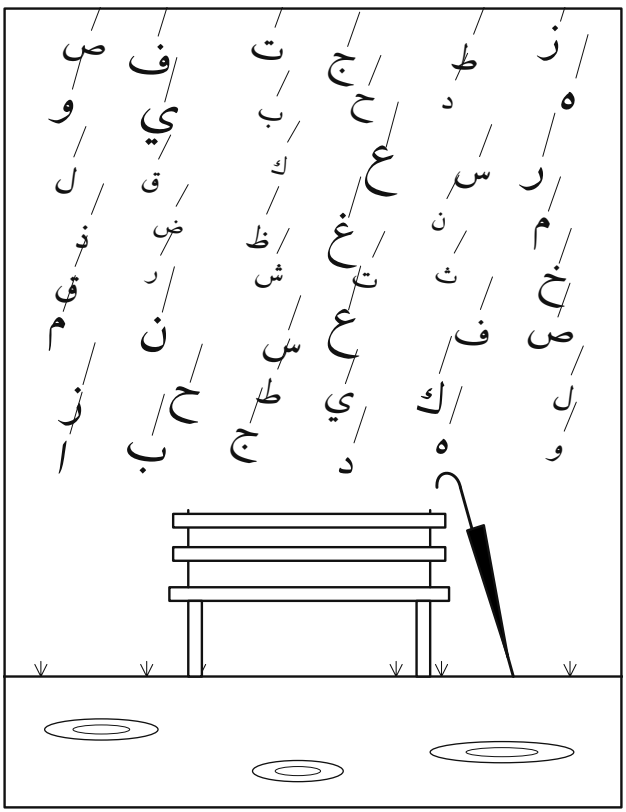
وقد كانت العربُ تقول للمثل إذا شاع في الناس: مثلٌ سائر، كأنّ له قدمين، وكأنّ قائلَه بعثه في حاجة. فأين تسير كلمةٌ لم يبعثها أحد؟ إنّها لا تسير. إنّها تسقط.

ولا تحسبنّ أنّي أستخفّ بالمطر، ففيه حياةُ الأرض. وربّ مسألةٍ عويصةٍ حلّها هذا الغيث، وعلمٍ نافعٍ ساقه، وحائرٍ دلّه على وجهته. ولكنّ أحدًا لم يحفظ قطّ قطرةَ مطرٍ في صندوقه، ولا قرأها مرّتين، ولا بكى عندها.

الرسالةُ تُطوى وتُخبَّأ تحت الوسادة. والمطرُ يجفّ.

فهذا أوّلُ ما ينبغي أن يُعلَم: أنّا لم نفقد الكلام، فهو اليومَ أغزرُ ما كان.

وإنّما فقدنا أن نكون به مَعنيّين.



حروفٌ تهطل، ولا مخاطَب.

البابُ الخامس

في الاعتراف

وهاهنا موضعُ إنصاف، فإنّ من العدل أن نعترف.

متى كنّا نقرأ؟

كم كتابٍ على رفوفنا اشتريناه لنكون ممّن يملكه، لا ممّن قرأه؟ وكم مجلّدٍ مذهَّبِ الكعب قام في المجلس قيامَ الحاجب على الباب، يُهاب ولا يُكلَّم؟ وكم واحدٍ منّا قال «قرأتُه» وهو يعني: قرأتُ عنه، أو سمعتُ مَن قرأ عنه، أو رأيتُ غلافَه في يدِ مَن أثق به؟

لقد كان لنا قبل الآلة فنٌّ عريقٌ في أن لا نقرأ، وكنّا فيه من الحُذّاق.

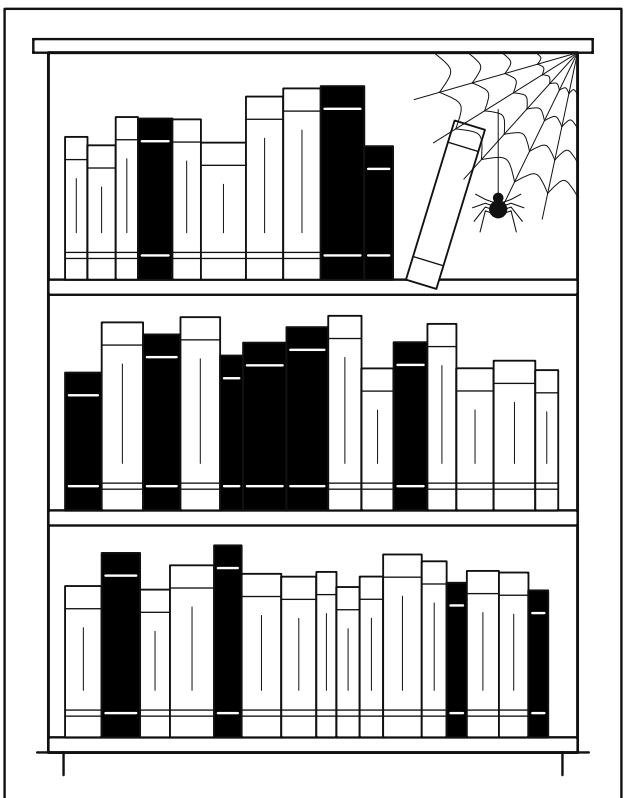
وأعجبُ من ذلك أنّ الكتبَ نفسَها ما كانت تطمع في أكثرَ من هذا. صنّف ابنُ النديم «الفهرست» في بغداد، قبل ألفِ عامٍ ويزيد، فأحصى فيه ما انتهى إليه من كتبِ الأمم، وهي ألوف. وأكثرُ ما سمّاه قد ذهب: أكله الماءُ والنارُ والأَرَضةُ وقلّةُ المبالاة. فلم يبقَ من تلك الخزائن إلا أسماؤها، مصفوفةً في كتابٍ واحد، كشواهدِ القبور.

ولم تقف الدنيا.

قال الجاحظ في الكتاب: «وعاءٌ مُلِئ علمًا، وظرفٌ حُشي ظرفًا». وصدق. ولكنّ الوعاءَ لا يَروي حتى يُشرَب منه، وأكثرُ الأوعية في كلّ عصرٍ ماتت ملأى.

فإن قيل لك اليوم: إنّ الناس قد كفّوا عن القراءة، فقل: رُوَيدَك. ما كفّوا، وإنّما كُشف الغطاء. كان الذي لا يقرأ يتكلّف أن يُرى قارئًا، فأعفته الآلةُ من التكلّف.

ما أحدثت داءً، ولكن رفعت سِترًا.



رفٌّ عامر، وعنكبوتٌ آمنة.

البابُ السادس

في العُمرَين

فما الكتابُ إذن، إن لم يكن ورقَه ولا مِدادَه، ولا كان، كما رأيتَ، مقروءًا في أكثر أمره؟

الكتابُ لقاءٌ بين غائبَين.

يكتب الكاتبُ وقارئُه غائبٌ عنه، لا يعرف له وجهًا ولا بلدًا، ولعلّه لم يولد بعد. ويقرأ القارئُ وكاتبُه غائبٌ عنه، ولعلّه قد صار ترابًا منذ قرون. ثمّ يلتقيان مع ذلك، في موضعٍ ليس من الأرض، لقاءً لا يشهده ثالث.

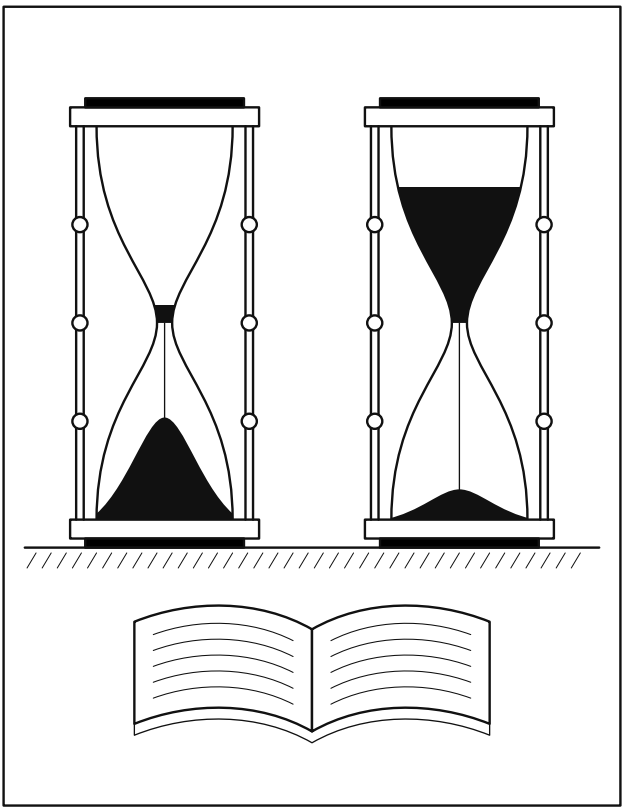
وماذا يتبادلان في ذلك اللقاء؟ لا يتبادلان علمًا، فالعلمُ يؤخذ من كلّ طريق. إنّما يتبادلان عُمرًا. أنفق هذا من

أيّامه المعدودة سنةً أو عشرًا ليقول، وأنفق ذاك من أيّامه المعدودة ليلةً أو شهرًا ليسمع. فالكتّابُ عقدٌ بين فانيَين، مَهرُه الوقت، وكلاهما يعلم أنّ ما يُنفقه لا يعود.

ومن أجل ذلك أحرق أبو حيّان التوحيديّ كتبَه في آخر عمره. ذكر ياقوت الحمويّ أنّه فعل ذلك لقلّةِ جدواها، وضنًّا بها على مَن لا يعرف قدرَها بعد موته، وأنّ القاضي أبا سهلٍ كتب إليه يعذله، فاعتذر. أنفق فيها حياتَه، ثمّ نظر فلم يجد مَن يُنفق فيها ليلة. فما أحرقها بغضًا لها، بل غَيرةً عليها: رأى أحدَ العُمرَين قد بُذل، والآخرَ لا يجيء، فأبى أن يترك نصفَ العقد معلّقًا في الهواء.

وهذا ما لا تقدر عليه الآلة، لا لعجزٍ في بيانها، فبيانُها ما علمتَ. ولكن لأنّها لا تموت، ومَن لا يموت لا يملك ما يُنفقه. تكتب لك ألفَ صفحةٍ ولا ينقص من أجلها ساعة، فبأيّ شيءٍ تُهديك؟

إنّما الهديّةُ ما نقص به المُهدي.



عُمرٌ بعمر.

البابُ السابع

فيما لا يُستنابُ فيه

للناس في معاشهم أمورٌ يُوكِّلون فيها، وأمورٌ لا تقبل الوكالة.

تُوكِّل مَن يبيع عنك ويشتري، ومَن يخاصم عنك عند القاضي، ومَن يحمل متاعَك إلى البلد البعيد. ولكنّك لا تُوكِّل مَن ينام عنك، ولا مَن يأكل عنك، ولا مَن يحزن عنك على ميّتك، ولا مَن يحبّ عنك. هذه أمورٌ إن ناب عنك فيها غيرُك لم تقع أصلًا: يشبع الوكيلُ وتبقى أنتَ جائعًا.

والفهمُ من هذا الباب.

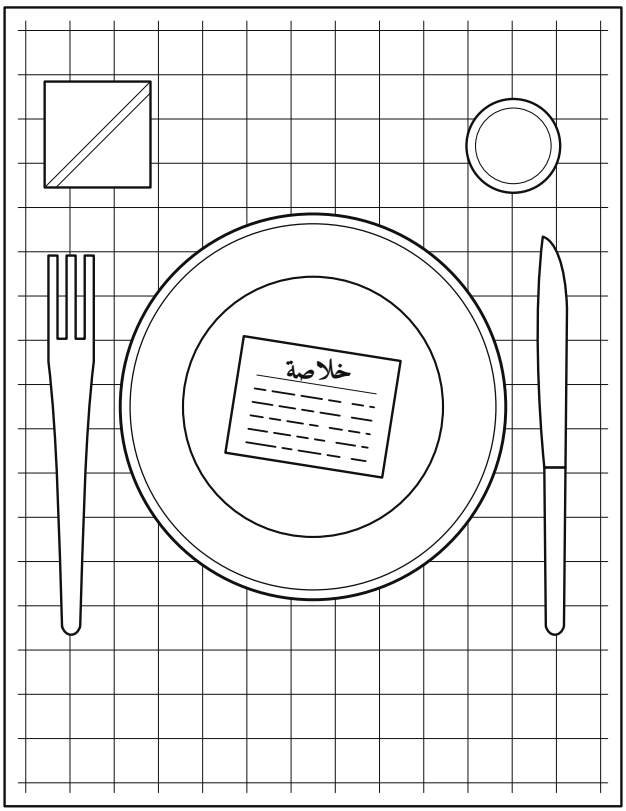
قد تقرأ الآلةُ عنك الكتابَ وتأتيك بخلاصته، كما يأتيك الرسولُ بخبر الوليمة: كان فيها كذا وكذا من الألوان، وكان الطعامُ طيّبًا. فتعلم ما أُكل، وما أكلتَ.

وانظر إلى أبي العلاء المعرّي. كُفّ بصرُه صبيًّا، فكان يُقرأ عليه ويُملي. نابت عنه عيونُ غيره، وما ناب عنه عقلُ أحد. فالعينُ تُستعار، والفهمُ لا يُستعار. ولو كانت القراءةُ مرورَ العين على السطور لكان قارئُه أقرأَ منه. وقد نسي التاريخُ اسمَ القارئ، وحفظ اسمَ الأعمى.

فليس العيبُ أن تستعين بالآلة على النظر. استعِنْ بها، فهي عينٌ لا تكِلّ. العيبُ أن تحسب أنّها فهمت عنك، فتمضيَ خفيفًا، في جيبك خمسةُ أسطر، وتظنَّ أنّك حملتَ الكتاب.

الخلاصةُ خبرٌ عن الكتاب. وأمّا الكتابُ فما يحدث فيك وأنت تقرأ: ذلك الوقوفُ عند الجملة التي لم تُرضِك، وذلك الغضبُ من صاحبها، ثمّ الرجوعُ إليه بعد يومين وقد غلبك.

هذا لا يُلخَّص، لأنّه ليس في الكتاب. إنّه فيك.



علمتَ ما أُكِل، وما أكلتَ.

البابُ الثامن

في القارئِ الكاتب

وقد آن أن أقضيَ الدَّينَ الذي أرجأتُه في الفاتحة: مَن كتب هذا الكتاب؟

لا تعلم. ولا سبيلَ لك إلى أن تعلم. قد يكون رجلًا سهر عليه لياليَ، وقد يكون آلةً لم تسهر، وقد يكون هذا وتلك معًا، على مقدارٍ لا يعرفه حتى صاحبُه. وليس على الصفحة علامةٌ تفصل بينهما: فالحبرُ واحد، والنحوُ واحد، وحتى الزلّةُ تُحاكى.

هذا هو الجديدُ الذي لم يعرفه الجاحظُ ولا أفلاطون. ما مات المؤلِّف، كما نعاه ناعٍ من الإفرنج قبل نحوٍ من ستّين

عامًا. وإنّما صار لا يُدرى: أحيٌّ هو أم ميت. وشتّان ما بين قبرٍ يُزار وغائبٍ لا خبرَ له.

فانظر ما يلزم عن ذلك. إذا لم يكن في المكتوب دليلٌ على كاتبه، فقد خرج المعنى من يدِ المُرسِل كلّه. كان المعنى شيئًا يُبعَث، فصار شيئًا يُستقبَل. كان الكاتبُ يُودِع الكتابَ قلبَه فيجده القارئُ هناك. فأمّا اليوم، فلا يجد القارئُ في الكتاب إلا ما جاء به هو: صبرَه، وسؤالَه، وجرحَه القديمَ الذي تقع عليه الجملةُ فيقول: هذه لي.

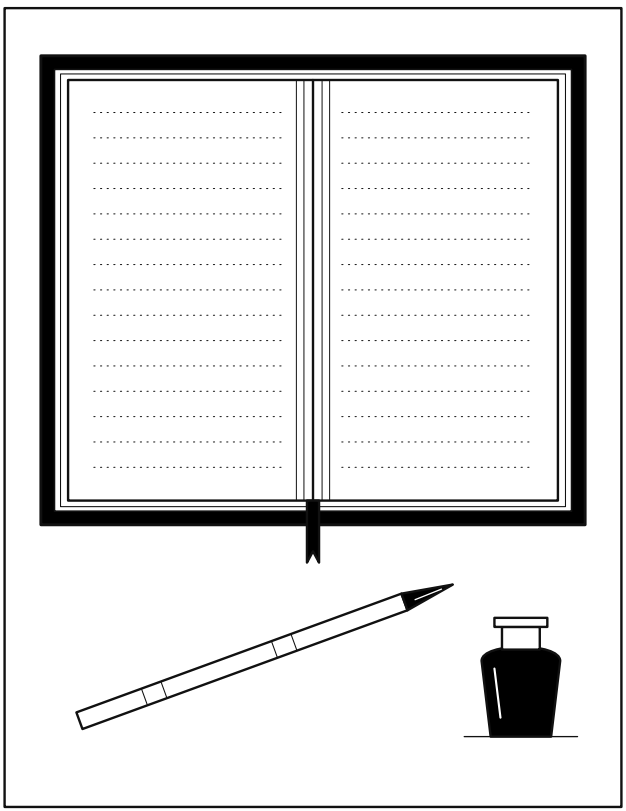
وإذن فالكتابُ يُكتَب عند القراءة، لا قبلها. وكلُّ صحيفةٍ لم يقف عندها إنسانٌ فهي بياضٌ وإن اسودّت بالحروف.

ما كتبه أحدٌ حتى تقرأَه أنت.

وبهذا يستقيم العنوانُ الذي حسبتَه مزاحًا. لن يقرأ أحدٌ هذا الكتاب: نعم، فأكثرُ الناس يمرّون به مرورَهم بالمطر. وما كتبه أحد: نعم، فإنّه لا يصير كتابًا حتى يلقى قارئَه. ولا بأس: فما كانت الكتبُ قطّ بعددِ نُسَخها، وإنّما كانت

بعددِ مَن غيّرته. وكتابٌ غيّر رجلًا واحدًا أعمرُ من خزانةٍ لم يدخلها داخل.

كان القارئُ آخرَ مَن يبلغ الكتاب. وهو اليومَ أوّلُ مَن يكتبه، وآخرُ إنسانٍ فيه.



القلمُ في جهتِك.

خاتمة، في تصويبِ العنوان

وعدتُك في الفاتحة بخطأين في العنوان، وهذا أوانُ الوفاء.

أمّا الأوّلُ فقولي: «لن يقرأه أحد». وقد قرأتَه. بلغتَ هذه الصفحةَ ولم تُنب عنك آلة، أو أنبتَها ثمّ رجعتَ تنظر بنفسك، وكلاهما يُحسَب لك. فأنتَ الأحدُ الذي نفاه العنوان.

وأمّا الثاني فقولي: «ما كتبه أحد». وقد كتبتَه. فكلُّ ما وافقتَني عليه في هذه الصفحات كان فيك قبل أن تفتحها، وكلُّ ما خالفتَني فيه فصلٌ زدتَه أنت، وهو خيرُ فصولها.

فإن سُئلتَ يومًا: مَن صاحبُ هذا الكتاب؟ فقل ولا تتحرّج: أنا.

وإن شئتَ أن تجزيَني عنه، فلا تُثنِ عليه. اعمِد إلى كتابٍ على رفّك اشتريتَه منذ سنين، وعليه من الغبار ما عليه، فافتحه الليلة، واقرأ منه صفحةً واحدة، بعينيك، على مَهَل.

فإنّ فيه رجلًا ينتظرك منذ زمن.

والسلام.

خِزانةُ الكتب · بطاقةُ الإعارة

لن يقرأَ أحدٌ هذا الكتاب

المؤلِّف: ..... القارئ .....

اسمُ المستعير	يومُ الإعارة	يومُ الردّ
أنتَ	الليلة	

أوّلُ مستعير.